نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس السابع

عناصر المحاضرة:

1. أساليب قريش في قمع الدعوة.
2. صبر النبي ﷺ على استهزاء قريش.
3. فقه الحكمة في مواجهة نبينا ﷺ أساليب إيذاء قريش.
4. أساليب قريش في مواجهة الرسول ﷺ ودعوته.
5. صور من أذى صناديد قريش للنبي ﷺ.

إن أعظم قدوة للمسلم في حياته وفي سلوكه وفي تصرفاته ومواقفه وأخلاقه هو سيد المرسلين،وإمام المتقين، محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم-، الذي قال فيه ربه -عز وجل-: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الأحزاب: 21].

لقد كانت حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منذ أن ابتعثه الله نبيًا ورسولاً، كانت حياة مملوءة بالابتلاءات والشدائد والمصائب والبلايا، ولكنه -صلى الله عليه وسلم- وهو إمام الموحدين وسيد المتقين، قابل تلك الشدائد كلها والمصائب جميعها، قابلها -صلى الله عليه وسلم- بصبر جميل، وثبات عظيم، فضرب -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه وأتباعه من المؤمنين أروع الأمثلة في الصبر والثبات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لنقف على جوانب من سيرته العطرة التي لا يملها الإنسان فيما يتعلق بصبره وثباته على هذا الدين وتكاليفه -صلى الله عليه وسلم-، وهي مواقف لن نستطيع أن نوفيها حقها أو نقدرها قدرها، لكن كان من أعظم ما وجه به -صلى الله عليه وسلم- يوم أن أعلن دعوته لكفار مكة ذلك الأذى النفسي الذي تسبب فيه مشركو مكة.

أساليب قريش في قمع الدعوة :

أساليب كفار قريش في مواجهة الرسول ﷺ ودعوته

لما رأى كفار قريش أن النبي ﷺ ماضٍ في دعوته، لا يصرفه عن الدعوة إلى الله شيء، ولم يثنه عنها حديثهم مع عمه أبي طالب، ولا غير ذلك من المحاولات الأخرى، فلجؤا إلى أساليب أخرى لمواجهة الرسول ﷺ، ودعوته، واختاروا لقمع هذه الدعوة عدة أساليب تنفر الناس عنها، ومن ذلك:

1-إثارة الشبهات حول مصدر القرآن الذي جاء به: وذلك ببث الدعايات الكاذبة حول القرآن، والرسول الذي جاء به، حتى لا يبقى لأحد مجال في تدبر دعوته، أو الاستماع إليه.

⇦فكان كفار قريش يقولون عن رسول الله ﷺ كما أخبر الله عزَّ وجلَّ: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل/١٠٣].

⇦وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ: {وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان/٧].

⇦وكانوا يقولون عن القرآن: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5)} [الفرقان/٤-٥].

⇦وكانوا يشككون في مصدر القرآن: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل/١٠٣].

2-معارضة القرآن بأساطير الأولين: وذلك لإشغال الناس بالأساطير عن القرآن، والذي تولى كبر ذلك النضر بن الحارث، وكان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد تعلم أحاديث ملوك الفرس، فكان يعقب الرسول ﷺ في مجلسه إذا قام، ويقول أنا أحسن حديثاً منه، وما حديثه إلا أساطير الأولين، ثم يحدثهم.

⇦وقد نزل في النضر قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (9)} [الجاثية/٧ -٩]. ونزل فيه: {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [القلم/١٥].

3-أسلوب السخرية والاستهزاء: كان كفار مكة يسخرون ويستهزؤن بالقرآن الكريم، والنبي ﷺ،

وذلك لصد الناس عنه، وتخذيل المسلمين، وتحقيرهم، ومواجهتهم بحرب نفسية توهن قواهم، وتشككهم في دينهم.

⇦فرموا النبي ﷺ بالجنون: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر/٦].

⇦ورموه بالسحر والكذب: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص/٤]

⇦ورموه بالشعر: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء/٥].

وكان ﷺ إذا قرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله تعالى سخروا منه: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت/٥].

وسخروا منه حين أخبرهم أنهم سيبعثون بعد الموت: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [الرعد/٥].

صبر النبي ﷺ على استهزاء قريش:

صبت قريش وغيرها من القبائل عظيم عذابها على المستضعفين من المسلمين، وغيرهم من الوجهاء والأقوياء.

أما النبي ﷺ فلم تستطع قريش بادئ الأمر أن تبطش به، أو تعتدي عليه كما فعلت بالمسلمين، لأنه كان رجلاً شهماً وقوراً، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء، بحيث لا يُقابل إلا بالإجلال والتوقير من قبل الخاصة والعامة، وكان مع ذلك في منعة عمه أبي طالب.

لكن قريشاً، خاصة أئمة الكفر والضلال، جعلوا يهمزونه ويستهزؤن به، ويسخرون منه ومن أتباعه، ويجادلونه ويخاصمونه.

وكان على رأس المستهزئين: أبو لهب عمه، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن أبي العاص، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبو جهل بن هشام وغيرهم.

وكان أبو جهل فرعون هذه الأمة، يستهزئ بالرسول ﷺ في كل ناد، فقال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، كما أخبر الله عنه وعن وأصحابه: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)} [الأنفال/٣٢-٣٣].

وجاءت أم جميل زوجة أبي لهب، فقالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: {وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3)} متفق عليه.

وقد تعرّض الرسول للكثير من الأذى من قِبل أبي لهب وزوجته؛ إذ كانت شريكة لزوجها في صَبّ الأذى على رسول الله، وإعلان تكذيب دعوته، وقد نزلت في أبي لهب وامرأته سورةُ المسد؛ بقوله -تعالى-: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) المسد ومن أفعال زوجته أنّها كانت تضع الشوك في الطريق الذي يمشي فيه الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وكانت تضع الأوساخ على باب بيته، وكانت تؤذيه بلسانها، وتُفسد بينه وبين الناس بالنميمة، وعندما علمت أنّ الله توعّدها بالنار هي وزوجها، أتَت إلى الرسول بالحجارة تُريد رميَه بها، إلّا أنّ الله صرفَ نظرها عن الرسول -صلّى الله عليه وسلّم.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها قَالَتْ : لمَّا نَزَلَتْ : " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ" أَقْبَلَتِ العَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ ، وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ : مُذَمَّمٌ أَبَيْنَا ، وَدِينَهُ قَلَيْنَا ، وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا ، وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ، ثُمَّ قَرَأَ قُرْآنًا وَمَعَهُ أَبوبَكْرٍ، فَلَمَّا رَآهَا أَبُوبَكْرٍ قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » ، وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ كَمَا قَالَ ، وَقَرَأَ : «وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا» فَأَقْبَلَتْ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، تَرَ رَسُولَ الله ﷺ ،فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي ،فَقَالَ : لا ، وَرَبِّ هَذَا البَيْتِ مَا هَجَاكِ ، قَالَ : فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ : قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا. أخرجه الحاكم .

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمماً، ثم يسبونه، فكان ﷺ يقول: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ » أخرجه البخاري.

أما زوجها أبو لهب، عم رسول الله ﷺ فقد بلغ من أمره أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع والأندية، ومواسم الحج، ويكذبه أمام الناس.

عن رَبِيعَةَ بْن عَبَّادٍ الدِّيلِ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي المَجَازِ،وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الوَجْهِ، أَحْوَلُ، ذُو غَدِيرَتَيْنِ، يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَالتُ عَنْهُ، فَذَكَرُوا لِي نَسَبَ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا لي: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ. أخرجه أحمد.

إن الاستهزاء باللسان أشد وقعاً على النفس من جرح السنان، وإذا كان الاستهزاء شديداً على النفس، فإنه ولا شك أشد وقعاً على الرجل الشريف البريء، الذي له المكانة الرفيعة في الخُلق والعقل، والصدق والأمانة.

ليس من السهل عليه ﷺ أن يجد نفسه في موقف يُسخر منه، ويُستهزأ به، ويوصف بالسحر والجنون والكذب، من قوم كانوا يمدحونه ويحمدونه من قبل، ولكن رسول الله ﷺ هان عليه كل ذلك في سبيل الله ومرضاته، رغم ما فيه من القسوة وألم القلب.

وبهذا نعلم عظمة حلمه ﷺ على من آذاه، وقوة صبره على قومه وهم يستهزؤن به، ويسخرون منه، لأنه يعلم مالا يعلمون، ويتطلع إلى ما لا يتطلعون، والله يؤيده ويصبره: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)} [الحجر/٩٧-٩٩]

والغالي يبذل في سبيله كل غال، فلابد من الصبر الطويل على كل استهزاء وأذى، ولابد في سبيل الله من تحريك القدم، وإتعاب البدن، وإيلام القلب بالتهم، حتى يظهر دين الله عزَّ وجلَّ.

عن عُرْوَةَ بْن الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ ، فَقَالَ : «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ(مكانٌ مخصوصٌ في الطَّائفِ) ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ(جبلٌ بين مكَّة والطَّائفِ) فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي، فَقَالَ : إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ . قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ» فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» متفق عليه.

ولما ابتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد وكسرت سنه وجرح وجهه وشجت رأسه وسال الدم منه على وجهه الشريف ورأت عائشة زوجه رضي الله عنها هذا المنظر الصعب واسته رضي الله عنها بقولها: هل رأيت شدة وأذى في حياتك يا رسول الله آلم من هذا الذي حدث لك؟ قال لها: إن الآلام الجسدية قد تهون ولكن الصعب الآلام النفسية ولقد رأيت من قريش من الآلام النفسية الشيء الكثير وأصعب ما رأيت منها يوم ذهبت إلى الطائف أستجير بزعيمها ابن عبد ياليل من إيذاء أهل مكة لي بعد موت أبي طالب طلبت منه أن يحميني من أذاهم -وكان من عادة العرب إذا أعلن كبير حماية أحد أو أنه في جواره لم يتعرض له ويصبح أذاه من أذاه واستمر في الإسلام أن يجير المسلمون من أجاره واحد منهم- وأقمت في الطائف عشر أيام أستعطفهم حمايتي وتمكيني من تبليغ دعوة ربي فسخروا مني وقالوا إن قومك الذين آذوك ويؤذونك أعلم بك منا ولولا أنك تستحق ما آذوك وأغروا بي سفهاءهم وصبيانهم يتبعونني بالشتم والاستهزاء وقذف الحجارة حتى أدموا قدمي وسرت لا أدري إلى أين أسير مهموما مهزوما مشغولا بما أنا فيه وقد كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ولم أنتبه لنفسي ولم أستفق من غشيتي إلا بعد عدة أميال في طريق وصلت فيه إلى ما يعرف بقرن الثعالب وقد رجع السفهاء والصبية فوقفت وأسندت ظهري إلى

سور حديقة ورفعت رأسي إلى السماء أقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ثم أظلتني سحابة فرفعت رأسي إلى السماء فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني: يا محمد إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت في قومك فناداني الملك الموكل بالجبال: يا محمد إن الله عز وجل قد سمع ما رد به قومك عليك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك لأأتمر بأمرك إن شئت أطبقت عليهم الجبلين المحيطين بهم فبماذا تأمرني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أعفو وأصفح وأسأل الله أن يهديهم إلى الإسلام فإن لم يسلموا فأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا. جامع السنة وشروحها

ومن صُور الإيذاء المعنويّ التي تعرّض لها الرسول الكريم:

تطليق أولاد أبي لهب لابنتَي النبيّ: كان النبيّ -عليه الصلاة والسلام-قد زوّج ابنتَيه؛ رقيّة -رضي الله عنها-من عتبة بن أبي لهب، وأم كلثوم -رضي الله عنها-من عتيبة بن أبي لهب، وحين جهر النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-بالدعوة، أساء أبو لهب له، وأعلن عداوته، وبعد نزول سورة المسد، أمر أولاده بتطليق بنات النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، وكان ذلك قبل دخولهما عليهما.

وتسلط عتبة بن أبي لهب على رسول الله ﷺ بالأذى، وشق قميصه، فدعا عليه رسول الله ﷺ، وقال: «اللَّهم سَلِّط عليهِ كَلْباً من كلابك» فخرج في قافلة يريد الشام فنزل منزلاً فقال : إني أخاف دعوة محمد. قالوا له : كلا ، فحطوا متاعهم حوله وقعدوا يحرسونه ، فجاء الأسد فانتزعه فذهب به . أخرجه الحاكم

معايرة النبيّ بعدم إنجابه الذكور: تعرّض الرسول للمُعايرة من قِبل مُشركي قريش؛ بعدم إنجابه الذكور، فكان العاص بن وائل السهمي ممّن عاب الرسول بذلك، فكان يصفه بأنّه أبتر، ولا يوجد له ابن ذكر يحمل اسمه، فإذا مات انقطع أثره ونَسله بموته، فنزلت سورة الكوثر؛ دفاعاً عن الرسول، ومواساة له، قال -تعالى-: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ*فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ*إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ).

فقه الحكمة في مواجهة نبينا ﷺ أساليب إيذاء قريش:

فجعل ﷺ ما ناله من الاستهزاء، وشماته الأعداء، أشد مما لاقاه يوم أحد من قتل حمزة مع سبعين من أصحابه، مع ما ناله من الجراحة: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس/٣٠].

وكلما افترى الكفار فرية على القرآن والرسول ﷺ كذبهم الله بوحي يُتلى كما قال سبحانه: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (42) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43)} [الحاقة/٣٨-٤٣].

وكفار قريش لما عجزوا أن يجدوا حجة أو برهاناً يواجهون به النبي ﷺ؛ لجأوا إلى السيف والقوة كما فعل فرعون مع موسى ﷺ: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء/٢٩].

والله سبحانه يربي رسوله ﷺ ليواجه أهل السخرية والاستهزاء بالتأكيد على الأمور التالية:

1-أن جميع الأنبياء واجههم الكفار بالسخرية والاستهزاء، فهي سنة الله لتربية أنبيائه وأوليائه: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7)} [الزخرف/٦-٧].

2-الإكثار من الحث على الصبر، وقد أمر الله رسوله ﷺ بالصبر على مشاق الدعوة في أكثر من ثمانين موضعاً في القرآن كما قال سبحانه: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم/٦٠].

وقال سبحانه: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق/٣٩].

3-الاستعانة على الدعوة بالعبادة: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)} [الحجر/٩٧-٩٩].

وقال سبحانه: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} [طه: 130]

4-تذكير المستهزأ به أنه ليس وحده في الميدان، فقد استهزأ الكفار بالله وآياته، ورسله، كما قال سبحانه: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)} [التوبة/٦٥-٦٦].

5-بيان أن المستهزئ مغلوب ومفلس، وأنه أقل درجة من المستهزأ به، فليعلن الحق الذي معه، ولا يبالي بما سواه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)} [الحجر: 94-96] وقال سبحانه: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم/٦٠].

أساليب قريش في مواجهة الرسول ﷺ ودعوته:

4-أسلوب المواجهة بالقوة:

أعداء الأنبياء إذا سمعوا الحق فإما أن يستسلموا له، وإما أن يستمروا في مواجهته بالقوة إن استطاعوا، فإن لم يستطيعوا واجهوه بالسخرية والاستهزاء.

وكفار قريش جمعوا في إيذاء النبي ﷺ وأصحابه بين السخرية والاستهزاء تارة، وبين الإيذاء المادي الجسدي تارة أخرى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (57)} [الأحزاب/٥٧].

وقد قام المشركون بالأذى المعنوي والجسدي لِيَحُوْلوا دون انتشار الدعوة، وإعادة الداخلين فيها إلى حظيرة الكفر.

وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته هم: (أبو لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن أبي العاص)، وهؤلاء كانوا جيرانه، وكان أحدهم يطرح رحم الشاة على رسول الله ﷺ وهو يصلي، وبعضهم يطرحها في برمته إذا نصبت له.

عَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ وَأَبُوجَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ، إِذَا سَجَد فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ، فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ. قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ،ثُمَّ قَالَ : «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ،فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ ، قَالَ : وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ ،ثُمَّ سَمَّى «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»، وَعَدَّ السَّابِعَ ، فَلَمْ يَحْفَظْ ، قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ. متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟، قَالَ: فَقِيلَ : نَعَمْ ، فَقَالَ : وَاللَّاتِ وَالعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ ،قَالَ : فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأُ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا» أخرجه مسلم.قالَ: إنَّ بَيني وبينَه لخَندَقًا مِن نارٍ وهوْلًا، أي: خوفًا وأمْرًا شديدًا، وأجنحةً: جمعُ جناحِ الطائرِ، الملائكةُ الَّذينَ يَحفظونَه، فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو دَنا مِنِّي، أي: قَرُبَ عندي لَاختطَفَتْه الملائكةُ، أي: استَلَبَتْه بِسرعةٍ عُضوًا عُضوًا، والمعنى: لَأخذَ كلُّ مَلَكٍ عضوًا مِن أعضائِه.الدرر السنية

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الـمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا ،فَجَاءَ أَبُوبَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ ، فَقَالَ:{أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} [غافر:28]،أخرجه البخاري.

فردد الكلمات التي قالها مؤمن آل فرعون، فترك القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر يصفعونه ويضربونه، حتى كان عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بالنعل على وجهه، حتى دمى وجه أبي بكر، وأغشي عليه رضي الله عنه، وحمل إلى بيته وهو لا يعقل شيئاً، فلما أفاق فتح عينيه ففُرب إليه طعام، فكان أول كلام نطق به أن قال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: هو بخير يا أبا بكر! قال: والله! لا أذوق ذواقاً ولا أطعم طعاماً، حتى آتيه فأنظر إليه. عبد الحي يوسف(طريق الاسلام)

أساليب قريش في مواجهة الرسول ﷺ ودعوته:

5- محاولة التقريب بين الإسلام والجاهلية :فقد اعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الوليد بن المغيرة، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا من أشراف قومهم، فقالوا: يا محمد هلمَّ فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا حظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)[الكافرون/١-٦] .

وكان كفار قريش يرون أن يترك محمد ﷺ بعض ما هو عليه، ويتركون هم بعض ما هم عليه، ليحصل التآلف والتوافق، فأنزل الله عزوجل(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) [القلم/5-٩] .

فثبت الله رسوله ﷺ على الحق، وأيده بنصره: {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)}[الإسراء/٧٤-٧٥] .

صور من أذى صناديد قريش للنبي ﷺ :

كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى :{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (9)[الهمزة/١-٩] .

وأما أخوه أُبيّ بن خلف فجاء يوماً إلى رسول الله ﷺ بعظم بالٍ، فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟ ثم فته بيده، ثم نفخه نحو رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : نعم أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار، فأنزل الله تعالى فيه:{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)}[يس/٧٨-٨٣] .

أما أشقى القوم عقبة بن أبي معيط، فماذا حصل منه؟ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كَانَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ لا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إلا صَنَعَ طَعَامًا فَدَعَا عَلَيْهِ النَّاسَ جِيرَانَهُ وَأَهْلَ مَكَّةَ كُلَّهُمْ ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ رَسُولِ الله ﷺ وَيُعْجِبُهُ حَدِيثُهُ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ، فَقَدِمَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ سَفَرِهِ فَصَنَعَ طَعَامًا ، ثُمَّ دَعَا رَسُولَ الله ﷺ إلى طَعَامِهِ ، فَقَالَ : « مَا أَنَا بِالَّذِي آكُلُ طَعَامَكَ حَتَّى تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله » فَقَالَ : اطْعَمْ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ : مَا أَنَا بِالَّذِي أَفْعَلُ حَتَّى تَقُولَ ، فَشَهِدَ بِذَلِكَ ، فَطَعِمَ مِنْ طَعَامِهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : صَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ، وَكَانَ خَلِيلَهُ. فَقَالَ : لا والله مَا صَبَوْتُ ، وَلَكِنْ دَخَلَ إِلَيَّ الرَّجُلُ فَأَبَى أَنْ يَطْعَمَ مِنْ طَعَامِي إلا أَنْ أَشْهَدَ لَهُ ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي قَبْلَ أَنْ يَطْعَمَ ، فَشَهِدْتُ لَهُ فَطَعِمَ .فَقَالَ : مَا أَنَا بِالَّذِي أَرْضَى عَنْكَ أَبَدًا حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ، وَتَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ. قَالَ فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، وَأَخَذَ رَحِمَ دَابَّةٍ فَأَلْقَاهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «لا أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إلا عَلَوْتُ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ». فَأُسِرَ عُقْبَةُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقُتِلَ صَبْرًا، وَلَمْ يُقْتَلْ مِنَ الأُسَارَى غَيْرُهُ ، قَتَلَهُ عَاصِمِ بْنِ ثَابِتُ بْنُ الأَقْلَحِ. أخرجه أبونعيم الأصبهاني في دلائل النبوة.

وكان الأخنس بن شُريق من أشراف القوم، وممن يُسمع له، وممن يؤذي رسول الله ﷺ ويصيب منه، ويرد عليه، فأنزل الله فيه:{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (13)}[القلم/١٠-١٣].

وكان الوليد بن المغيرة المخزومي من سادة قريش، وكان ممن يجادلون رسول الله ﷺ، وينال منه، ويقول: أَيُنزَل على محمد، وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ويُترك أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي سيد ثقيف فنحن عظيما القريتين! فنزل قوله سبحانه: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (32)}[الزخرف/٣١-٣٢] .

أما العاص بن وائل السهمي فكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وتهكماً به.

فحين مات عبد الله ابن النبي ﷺ، قال العاص بن وائل: لقد انقطع نسله،وكان إذا ذُكر رسول الله ﷺ، قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو قد مات لانقطع ذكره، واسترحتم منه، فأنزل الله في ذلك: { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)}[الكوثر/١-٣] .

وعَنْ خَبَّابٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ لي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ ، فَقَالَ لِي : لَنْ أَقْضِيَكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ، قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ ، ثُمَّ تُبْعَثَ ، قَالَ : وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ ،فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلى مَالٍ وَوَلَدٍ، قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (78) كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80)} [مريم : 77-80]

أما أبو جهل بن هشام فكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأصحابه، فكان أخزاه الله يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق، ويؤذيه بالقول والفعل.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَجَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ يُحَدِّثُهُمْ بِمَسِيرِهِ ، وَبِعَلامَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَبَعِيرِهِمْ ، فَقَالَ أُنَاسٌ : نَحْنُ نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَا يَقُولُ،فَارْتَدُّوا كُفَّارًا ، وَضَرَبَ اللهُ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ ، قَالَ : وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرِ الزَّقُّومِ ، هَاتُوا زُبْدًا وَتَمْرًا فتزَقَّمُوا. أخرجه أحمد.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ : "اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ» أخرجه أحمد والترمذي.

ولقي أبو جهل مرة رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذي تعبد، فأنزل الله تعالى فيه: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)[الأنعام/١٠٨] .

⇦فكف عندئذ رسول الله ﷺ عن سب آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله تعالى.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم ، هَلُمَّ إلى اللهِ عز وجل وإلى رسولِه ، أدعوكَ إلى اللهِ». قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أنْ نشهد أنْ قد بلَّغت؟ فنحن نشهد أنْ قد بلَّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليَّ فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكنْ بني قصي قالوا : فينا الحِجابة. فقلنا: نعم. فقالوا: فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء. فقلنا: نعم. قالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعَموا وأطعَمنا، حتى إذا تحاكَّت الركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

هذه بعض أنواع السخرية والاستهزاء من كفار قريش بالنبي ﷺ، والله سبحانه يؤيده ويحفظه، ويسليه، ويبشره بالنصر والتمكين، فيقول: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام/١٠].ويقول له: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)}[الحجر/٩٧-٩٩].
ويقول له: { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)}[الروم/٦٠] .

ويقول له سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: 67].

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: يقولها خالق الأرض والسماء، ومن أمره بين الكاف والنون، وحينئذٍ اطمأنَّ الفؤاد الشريف، وارتاحت هذه النفس الكريمة بأن الله سبحانه حافظها؛ ليؤدي هذه الرسالة، فإنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يكدِّره أن يمس في ذاته الشريفة بقدر ما كان يتأذى ويخشى ويحزن ألا يتمكَّن من تبليغ الرسالة، وأن تطوى حياته، وتنقضي قبل أن يبلِّغ رسالة ربه،

فطَمْأَنَه ربُّه بأنه لن يموت حتى يكون قد بلَّغ هذه الرسالة على ما أراد ربُّ العزة سبحانه. خالد بن عبدالرحمن الشايع

قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم -بواجب الدعوة إلى ربه خير قيام، فقد لبث في مكة ثلاثة عشر عامًا، يدعو قومه إلى توحيد الله -عز وجل-، ويدعوهم إلي مكارم الأخلاق، وينهاهم عن عبادة الأوثان، ويسفه أحلام أولئك الذين عبدوا أحجارًا لا تنفع ولا تضر، ثلاثة عشر عامًا كلها دعوة دائبة ثابتة مستمرة، لتأسيس الإيمان في القلوب، لغرس بذرة التوحيد في النفوس ورعايتها، حتى تُؤْتِيَ أُكُلَهَا بِإِذْنِ رَبِّهَا.

نبينا صلى الله عليه وسلم محفوظٌ بحفظِ الله، مؤيدٌ بتأييد الله، والعاقبةُ لهذا الدين ولو كره المشركون، وإنَّه لمن المهم أنْ يدرك كلُّ مسلم ما ينبغي عليه من الثبات على هذا الدين، وألا يغترَّ بأقوال المشبهين، والمحادين لهذا الدين، كما أنَّ من المتعين على كل مسلم أنْ يتشرف بأن يحمل همَّ هذا الدين، وهمَّ الدفاع عنه، وهمَّ الدعوة إليه، فهذا مخاطبٌ به كل المسلمين، فالدعوة إلى الإسلام وتعريفُ العالمين به، ليست مهمةً مقتصرةً على أهل العلم، أو على أهل السلطان فحسب، بل كل مسلمٍ مخاطبٌ بذلك بقدر ما عنده من العلم والقدرة، وربنا جل وعلا يقول في كتابه الكريم: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: 1 - 3].

فهذه الأمور الأربعة - الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق، وهو الدعوة إلى هذا الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالصبر؛ لأنه إن ثبت على دينه ودعا إليه، فلا بد أن يُبْتَلى، وهذه سنة ماضية - لا ينفك عنها المؤمن الذي يريد النجاة والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم قام بهذا الواجب العظيم أتمَّ القيامِ، وأكملَه وأشرفَه، وأسنَاه وأعلَاه، فلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك؛ فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته.

المراجع:

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضـــوء القــرآن والســـنة، -جامعة الفقه الإسلامي العالمية في ضوء القرآن والسنة-.

❷الموسوعة التاريخية: الدرر السنية.

❸طريق الإسلام.